أثر السياق في البحث الصوتي و الدلالي
في التراث العربي و الفكر اللغوي الغربي

الدكتور :ابن فطة عبد القادر

جامعة معسكر ـ الجزائر

ركّز العلماء على السّياق في فهم النصوص،فهو وعاء يلتقي فيه الصوت بالدلالة فأحاطوا بكلّ أنواعه كسياق الموقف والسياق واللغوي، وكانوا أكثر تطرقا إليه في القرآن الكريم لأنّ لغته أرقى من الناحية التركيبية، فأولوه أهمية قادتهم إلى التأصيل والتقعيد.والناظر إلى التراث يجده حافلا بالإبداع والتأليف.و يلاحظ أنّ أصحابه لهم إلمام واسع بعلوم اللغة ، لذلك تمكّنوا من الإحاطة به خاصة في النص القرآني.إن القيم الصوتية في اللغة العربية تحمل معاني جزئية و مقاصد عامة، فهي تثير صورا موحية حافلة بالدلالات تؤدي وظائف هامة في النص عن طريق السياق.

Abstract: Scientists focused on the context in understanding the texts. The context is a bowl where the sound and meaning meet. They sorted out all types of contexts such as attitudinal (internal =intentional) and linguistic (external) contexts, and they touched this much more in the holy Koran because its language was the finest from the viewpoint of synthetics. Thus, they devoted it too much importance leading them to indigenisation and rulemaking. The beholder into heritage will find it full of creativity and authorship, and notes that its owners have a broad knowledge of the science of language. Thus, they were able to take it especially in the Quranic text. The phonological values in Arabic bear partial meanings and general purposes which raise suggestive images bus semantics playing important functions in the text via the context.

ركّز العلماء على السّياق في بناء مذهبهم على الأصوات لتحديد الأبعاد الدلالية،فوظّفوا ألفاظا موافقة لخصائص العربية مع مراعاة أصلها الذي انبثقت منه.و لقد سمحت لغة القرآن بتنوع الفهم و اختلاف الأوجه، فأولوا السّياق أهمية قادتهم إلى التأصيل والتقعيد.والناظر إلى التراث يجده حافلا بالإبداع و التأليف.و يلاحظ أنّ أصحابه لهم إلمام واسع بعلوم اللغة ، لذلك تمكّنوا من الإحاطة به خاصة في النص القرآني الذي لا يمكن استيعاب الدلالة إلاّ بما دلّ عليها اللفظ وسياقه، ،كما يتطلّب الصوتي منه دقّة الفهم و قوة الإدراك .

علاقة السّياق بالصوت و الدلالة: إنّ العلاقة بين الصوت ودلالته مرتبطة بالسّياق، فالصوت بدلالته السياقية المختلفة تكسبه تنوعا دلاليا . فقد تعمّق العلماء قديما فيه لضبط معاني الألفاظ،و تفسير النصوص تفسيرا سليما ، والعرب لم يعرفوه بهذا المصطلح و إنّما التفت إليه أهل البيان في موضوع النظم ِ"النظم توخي معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم." [1]

و أشادوا بأهميته في معاجمهم "السّياق لغة : من السوق يقال : انساقت الإبل ، وتساوقت إذ تتابعت، والمساوقة : المتابعة ، كأن بعضها يسوق بعضا . ويطلق الاتساق أيضا على الانتظام ،

و النظام : العقد من الجوهر ، والحرز و نحوهما ، سمي بذلك لنظمه الجوهر والحرز بعضه إلى بعض ي نظام واحد ، و اتّساق واحد ." [2]

و هو من أكبر القرائن الدالة على معاني الألفاظ فقد أفاض الأصوليون في الحديث في علاقة السّياق باللفظ و المعنى لأنّ الاحتكام إليه في توضيح المجمل تخصيص العام ، وتقييد المطلق. والدليل هو أنّ أول من استخدمه الشافعي فقد خصّص له بابا في كتابه الرسالة الصنف بين سياقه ومعناه "وتبتدئ العرب الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه من آخره ، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه من أوله ." [3]

و يعد دعامة للتفسير الصحيح "فلا محيص للمتكلم عن رد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره،و إذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف ، فإن فرق النظر في أجزائه ، فلا يتوصل به إلى مراده ، و لا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض." [4]

و يختص بموقع اللفظ داخل الجمل و يستثمر المعنى الداخلي.فالأصوليون اتّخذوا السّياق لإظهار دلالة اللفظ في النص الشرعي معتمدين على القرائن السّياقية .

فلجوء الأصوليين إلى السّياق حين يخشون عدم الوفاء بالمعنى ،و قد وضعوا ثلاثة ضوابط لفهم دلالة السّياق ، مراد المتكلّم الله ورسوله ،وحال المخاطب ،ثمّ الصاحبةّ ذكر الشاطبي بقوله "معرفة مقاصد كلام العرب إنّما مداره على مقتضيات الأحوال ، وحال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب،أو ، أو الجميع." [5] فالأصوليون اعتمدوا على السّياق في فهم معاني النصوص الشرعية ، وهذا بالاستعانة بالقرائن كما تناولوا السّياق اللغوي في الأمر والنهي " وهي صفتا التكلف تنصان في التشريع على وضع الحكم لأفعال المكلّفين طلبا بالأمر على أوجه دلالته المختلفة من وجوب وإباحة"[6].

أمّا السّياق بالمعنى الواسع فيقصد به كل القرائن التي تساعد على الوقوف على مضمون النص الشرعي ، وهذا النوع اختصّ به الأصوليون فعلم النص لا بدّ له من علامات مكتوبة أو منطوقة تساعد على تحديد المبنى لكنّ الوصول إلى المعنى يحتاج إلى قرائن معنوية ولفظية .

فالسّياق بدلالة الألفاظ يستوعب ما تحمله الآيات القرآنية و يحدّد نوع الأساليب،في إزالة الغموض و إظهار الفروق الدلالية بين الألفاظ.

أمّا عند المفسرين فكانت الحاجة إلى كشف المراد من النص جعلتهم يتناولونه أكثر من غيرهم "إنّ التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن و مدلولاته و أحكامه الإفرادية و التركيبية و معانيه التي تحمل عليها حاجة التركيب و تتمات ذلك." [7] فألفاظ القرآن و دلالاتها

تستحق مراعاة السياق و لذلك استثمره المفسرون في كتبهم برهانا على تعيين دلالة كلمات القرآن.

لقد اهتمّ المفسرون بالسياق،و استعانوا به في الكشف عن المعنى المراد للشارع الحكيم. قال الزرقاني"أن يطلب المعنى من القرآن،فإن لهم يجده طلبه من السنة لأنّها شارحة للقرآن، فإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة،فإنّهم أدرى بالتنزيل و طروفهنو أسباب النزول" [8]

ولم يقف المفسّرون بالسّياق عند معرفة دلالة اللفظ فقط وإنّما تجاوزوا ذلك لتحليل النص الكامل للآية على نحو وصلوا فيما بعد إلى الحديث عن التناسب بين الآيات و بين السور. وقد وضح ابن تيمية ذلك من خلال دراسته لهذه المسألة"ينظر في كل آية و حديث بخصوصه و سياقه ، وما بين معناه من القرائن والدلالات ، فهذا أصل نافع عظيم مهم، في باب فهم الكتاب و السنة." [9]

فالسّياق عند المفسّرين أصل من أصول التفسير يزيل الإشكال عن معاني الكلمات و يدفع الاضطراب عن آيات الكتاب، ويوضح الظروف والمواقف التي ورد فيها النص.

أمّا عند البلاغيين فللسّياق قيمة هامة فهو يخلق المناسبة بين الصوت ودلالته ، فالاهتمام لا يقف عند إبراز هذه المناسبة بقدر ما يكشف مطابقة الكلام بذوق مميز ماثلا عند البلاغيين،أو انتقاء الألفاظ التي تلائم الموقف.

فالجاحظ ضبط مميزات التراكيب البديعة وفق مقاييس بلاغية تهم اللفظ في مجاله الإفرادي ثمّ في صلته بالمعنى بغية فهم ارتباط الوحدات في السياق الواحد وهذا ما أسماه بالنظم.

و تفطّن الجاحظ إلى أهمية السّياق ودعائمه فأحصاها "و جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ ،خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد:أولها اللفظ ،ثمّ الإشارة ، ثمّ العقد، ثمّ الخط ،ثمّ الحال التي تسمى نِصبة"[10]- ما ذكره الجاحظ من عناصره قد سبق به المحدثين الذين اصطلحوا على تسميته بالسّياق اللغوي وغير اللغوي.

كما أنّه يضمن القيمة الفنية لعلاقة الصوت بمدلوله . فالسّياق عندهم نوع من أنواع البيان جار في القرآن وكلام العرب فدلالته مبنية على الذوق، فهو في القرآن الكريم يدل على دلالة اللفظ يستوعبها المتلقي بمساعدة القرائن السّياقية ، كما أنّه يعلل انتقاء الألفاظ لكل لفظ معناه ، كما يبين عن المحذوفات و هذا دليل على الإعجاز القرآني . فدراسة النص في ضوء السّياق يؤكد أنّ كلّ الألفاظ قد ذكرت في مواقعها المناسبة ، و أنّ دلالتها لا تتحقق إلا بذكر

تلك المواقع.كما أنّه يكشف عن الانسجام بين الترتيب الزمني تبعا لأسباب النزول و هذا ما نلمسه في القصص القرآني.

فالعلماء الأوائل أدركوا قيمته في الجمع بين الألفاظ والمعاني في سّياق دون آخر، ولا يمكن الجمع بينهما إذا تغيّر.

و أقرّ البلاغيون أنّ في علم المعاني وجوب معرفة مضمون الكلام من خلال القرائن ،وأثبتوا الصّلة المتينة بين علم المعاني و السّياق في إدراك دلالة الألفاظ . كذلك علاقته بعلم البيان "الكلام على ضربين : ضرب آخر تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده...وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة و التمثيل." [11]

أمّا الجرجاني فقد أسهب في الحديث عن اللفظ و دلالته، و هذا بمراعاة السّياق و خاصة في النص القرآني الذي تميّز بوضع الألفاظ في مواضعها، وترتيبها ترتيبا دقيقا، والتنويع في الخطاب من تخويف وتنبيه وتذكير مدعّما بالأدلّة.

كما أشار إلى تماسك الكلمات و ملاءمتها للمقام"النظم هو توخي معان النحو في معاني الكلم،و ذاك أن من شأن إضافة الاختصاص فهي تناول الشيء من الجهة التي تختص منها المضاف إليه،فإذا قلت(غلام زيد)تناولت الإضافة(الغلام)من الجهة التي يختص منها (زيد) و هو كونه مملوكا." .[12]

أمّا السياق عند اللغويين فقد التفتوا إلى أهميته، و اعتمدوا عليه في الدلالة "وذلك أنّ المراد من اللفظ و الدلالة على المعنى ؛ فإن ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يحتج اللفظ المطابق، فإنّ أتى باللفظ المطابق جاز، وكان التأكيد ،و إن لم يؤت به بالاستغناء عنه ، وفروع القاعدة كثيرة منها حذف المبتدأ أو الخبر ، والفعل والفاعل و المفعول و كل عامل جاز حذفه، وكل أداة جاز حذفها."[13]

فاللغويون تناولوا سّياق الموقف لكن تحت مصطلح الحال ،وأوّل من اعتمده الخليل و هذا لإظهار التركيب ودلالته، وقد استفاد منه النحاة ، كما تعرّض إليه سيبويه في تحديد معاني الألفاظ "اعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين .فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو:جلس

وذهب.واختلاف اللفظيين و المعنى واحد؛نحو:ذهب وانطلق .واتفاق اللفظين والمعنى مختلف، قولك،وجدت عليه من المَوْجِدة ووجدت إذا أردت وجِدان الضّالة و أشباه هذا كثير"[14]

أمّا ابن جني فقد كشف عن الأحوال الصوتية المواكبة للفظ [التطويح ، والتطريح]و هذا إشارة إلى دلالة على معنى اللفظ. فالسياق عنده تناسب دلالة الكلمة مع دلالات الكلمات الأخرى الواردة في التركيب.

فاللغويون العرب لم يكونوا غافلين عن علاقة السّياق بالصوت و الدلالة .لكونه أساس بناء النص و تفسيره و جزءا من نظام اللغة، فلا يمكن معرفة معنى اللفظ إلاّ في إطار السياق الذي وردت فيه،فلكلّ كلمة وزنها حين تستقلّ بدلالتها.

فقد اتّخذ علماء العرب السياق وسيلة لمعرفة دلالات الكلمات،و اعتمدوا عليه لفهم مراد الكلام عموما ومقصود القرآن خصوصا . فإهماله في تحديد دلالة اللفظ يؤدي إلى الوقوع في الخطأ.

فلمعرفة أيّ دلالة كلمة فلا بدّ من السّياق فأمّا خارجه فإنّ الدلالات تختلف" إنّ الكلمة خارج السياق تحتمل معها كل ما يمكن أن يثيره من دلالات يحتمل أن تؤديها ، ولهذا لا يمكن الوقوف على المعنى المحدد للكلمة ، لا من خلال إنجازها performance أو أدائها في سياق مقالي ومقامي محددين"[15]

فالقدامى اهتموا بالجانب التطبيقي في دراسة الصوت ودلالته فاحتكموا إليه للإفصاح عن أسرار هذه المسألة ، وساعدهم في ذلك إحاطتهم بعلوم اللغة .

أمّا المحدثون فقد تناولوا موضوع السّياق وعلاقته باللفظ والمعنى متأثرين بالغربيين كفيرث ومنهم تمام حسان حين تطرّق إلى الظواهر السّياقية كالإدغام حماية للنظام اللغوي من اللبس. و ركّز على أهمية الذوق العربي في حرصه على قوة الصلة بين الصوت ودلالته.

كما أشار إلى ظاهرة الموقعية كالوقف و التأليف الذين يحققان استقامة المعنى على أساس اللفظ المناسب لتفادي ما تكرهه اللغة من تنافر و تماثل.

و يرى أنّ السّياق وحده لا يكفي لإبراز المعنى الدقيق للألفاظ فلا بد من العنصر الاجتماعي "ففي الغالبية من أمثلة دلالة السّياق يجد المرء قدرا عظيما من الكمال في الدلالة على المعنى،و لكن هذا القدر وإن عظم لا يمكن أن يلهينا بما فيه من عنصر كفاية النص عن تطلب العنصر الاجتماعي في المنطوق." [16]

وكان تمام حسان قد ألمّ بالدراسات الغربية الحديثة في الميدان اللغوي مع إحاطته بالتراث العربي القديم ،فاستغلّ ما جمعه في علاقة المعنى بالسّياق ليطبّقه على اللغة العربية مادامت مؤهلة لتقبّل الفكر الإنساني "ومن هنا دعت الحاجة المنهجية إلى تشقيق المعنى إلى ثلاثة معان فرعية أحدهما المعنى الوظيفي و هو وظيفة الجزء التحليلي في النظام أو السّياق على حدّ سواء. والثاني المعنى المعجمي للكلمة و كلامها متعدد و محتمل خارج السّياق وواحد فقط في السّياق و الثالث المعنى الاجتماعي أو معنى المقام وهو أشمل من سابقيه هو يتّصل بهماعلى طريق المكامنة لأنّه يشملها و بالمقام معبرا عن معنى السياق في إطار الحياة الاجتماعية."[17]

إلى جانبه كمال بشر الذي يقرّ بضرورة وجود السياق للربط بين اللفظ والمعنى و قد سماه بالمسرح اللغوي لكنّه آثر مصطلح المقام أثناء التحدّث عنه"و الاهتمام بالمقام أمر لا يختلف فيه أحد، بل هو مما يصر اللغويون المحدثون على مراعاته ، ولكن لا بالصورة التي تبناها علماء العربية ، و إنّما على وجه آخر." [18]

و يرى أنّ رؤية القدامى للسّياق كانت ضيقة فهي لا تعدو انتقاء الألفاظ المناسبة لتحقيق المعاني الصحيحة "و هكذا نرى أنّهم وقفوا في إدراك شيء مهم في الدرس اللغوي ، ولكنهم – كعادتهم –طبقوه بطريقتهم الخاصة ، لقد كانت عناية هؤلاء القوم موجهة نحو الصحة والخطأ ،و نحو الجودة و عدمها ، لا نحو البحث عن الحقيقة كيفما كانت و على أي حال وجدت." [19]

وانضمّ إليهما محمود السعران الذي انطلق في معالجته لهذه المسألة من أفكار الغربيين وبالضبط فيرث ومالينوفسكي "نعم إنّ كلمة CONTEXT [السياق] كانت متداولة بين اللغويين من قبله ولا تزال متداولة بينهم، ولكن مالينوفسكي أضفى على الاصطلاح [سياق الحال] معنى خاصا ليس هنا مجال التعريف به، ثمّ تطوّر هذا المصطلح تطورا آخر باستعمال فيرث نوع من التجربة من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه الكلام." [20]

كما تبنّى فكرة الربط بين السّياق و الجانب الاجتماعي لإظهار وظيفة المتكلم في الموقف الكلامي.

أمّا الغربيون فقد تناولوا السّياق بالّتنظير و الضبط في الحقل اللغوي، و من الأوائل الذين عالجوا نظرية السّياق دي سوسور الذي تعمّق في البحث في اللغة و فرّق بينها و بين الكلام"إنّ الجملة أحسن نموذج للسّياق لأنّها من مشمولات اللفظ [الكلام]لا اللغة ، أفلا ينجز ذلك أن يكون السّياق من مشمولات اللفظ." [21] وانطلاقا من هذا التمييز صنّف السّياق إلى صنفين ثابت لا يتغيّر و يندرج تحت اللغة كالأمثال ،و الثاني حرّ ينتمي إلى الكلام .

إلى جانب دي سوسور ساهم فيرث في بلورة نظرية السّياق حتى يكون للمدرسة الإنجليزية دور كبقية المدارس الأخرى . وقد ركّز على سياق الموقف، و ساعده في ذلك إحاطته بعلم اللغة و اطّلاعه على الفكر الإنساني ، فقد نظّر للسّياق ، واجتهد على أن تكون له مكانة في الدراسات اللغوية "إنّ دراسة اللغة بشكل عام . وكذلك دراسة المسائل اللغوية الأخرى، من كلمات و أصوات و جمل هي دراسة دلالية لمعاني هذه العناصر." [22] فهو يؤكّد على أنّ للمعنى دورا كبيرا في السباق بدلا من علاقته باللفظ.

فانفراده بهذا الرأي عرّض نظريته للنقد "إنّ فيرث لم يقدم نظرية شاملة للتركيب اللغوي، واكتفى فقط بتقديم نظرية للسيمانتيك[23] مع أنّ المعنى يجب أن يعتبر مركبا متن العلاقات السياقية ، ومن الأصوات و النحو و المعجم و السيمانتيك"[24]

كذلك أولمان ستيفن الذي رأى أنّ الكلمة ليس لها دلالة إلاّ في إطار السّياق ، و أنّ النصوص لا تكون مجدية بدون الالتفات إلى السّياق "إنّ السّياق ليس مقصورا على معناه التقليدي و هو النظام اللفظي للكلمة و موقعها من ذلك النظام و إنّما يشتمل الكلمات والجمل الحقيقية السابقة فحسب، بل القطعة كلّها ، و الكتاب كلّه ، كما ينبغي أن يشمل ما يتّصل بالكلمة من ظروف و ملابسات"[25]

فالذي ذهب إليه قد سبقه إليه العرب من أهل العلم ومنهم المفسرون الذين اشترطوا معرفة أسباب النزول و المكان للوقوف على السياق.

أثر الأصوات في دلالة الألفاظ القرآنية:اللغة ظاهرة عرفها المجتمع الإنساني ارتبطت بفكره،وكانت دعامة حضارته .وقد درس السلف اللغة على نحو علمي و كانت دراستها موضوعية ، بحثوا من خلالها مسائل كثيرة اختلفوا فيها منها العلاقة بين الصوت الدلالة ، والمقصد الأساسي لديهم هو حماية اللغة من اللحن،فعملوا على إثباتها و التركيزعلى أثر الصوت في دلالة اللفظ "يمكن القول إنّ فكرة الصوت و ما يؤديه من دلالة قد حظيت بأهمية بالغة عند العرب؛ فقد بدأ البحث عن طبيعة العلاقة بين جرس الكلمة و معناها الذي يتسق معها عند العرب وقت مبكر،منذ واجهوا مشكل الآيات القرآنية و إعجازها." [26]

وتمتلك اللغة العربية قوة التأثير لتضمنها هذه الصلة ، فالمعنى يخضع لنظام صوتي و إيقاع موسيقي متميز"إنّ دقّة المعنى تتّفق مع جرس الحرف المختار،فكأنّ هناك اختيارا مقصودا للصوت ليؤدي المعنى المغاير لما يؤديه الصوت الآخر." [27]

فهذه العلاقة لا نجدها كاملة إلا في القرآن الكريم لأنّه يمثل المثل الأعلى للسان العربي، أمّا في غيره فقد نجد بونا بين الصوت والمعنى، و هذا راجع لعامل الزمن .هذا ما أكده سيبويه لأنّ الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر و كذلك ابن جني "لأنّ لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا و تقصر أسبابها دوننا ." [28]

فالعلاقة وثيقة بينهما في القرآن و هذا ما يحمله النسق الصوتي ففيه تبدو ظاهرة الانسجام المناسب بين الصوت والمعنى قد أشار إليه القدامى في إظهار فصاحة الكلمات أو العبارات انطلاقا من أصواتها"و يعد ما قدمه علماؤنا في هذا الميدان جهدا عظيما استهدف الوصول إلى إدراك العلاقات بين الأصوات انسجاما أو تنافرا،والوقوف عند قوانين الانسجام و التنافر وغير ذلك"[29] إنّ الانسجام الموجود بين اللفظ والمعنى يغيب ظواهر سلبية كالتكرار، ويجعل الصوت واضحا عن طريق بعض المظاهر كالفاصلة لتقوم بدورها في السياق القرآني .فهي لا تقتصر على النظم و إنّما تراعي المعنى.فتلاؤم الصوت مع المعنى يثري دلالة الكلمات و يكشف عن مضمونها.

إنّ استقلالية اللفظة بحروفها يعطيها صوتيا رنة متميزة عن غيرها من الألفاظ التي تشاركها في المعنى نفسه.فالألفاظ لها دلالة محتملة من ناحية ،وارتباط معجمي عندها يرى ضرورة النظم قال الخطابي"هولجام الألفاظ، وزمام المعاني ،به تنتظم أجزاء الكلام ، و يلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس ليتشكل بها البيان ." [30]

وفي القرآن تظهر الدقّة في انتقاء المفردة التي تحوي قدرات قبل أن توظف في السياق ، وتتّضح أهميتها في المعنى،ويؤكد هذا ارتباط الصوت بدلالته .

إنّ الكلمات القرآنية لها دور ضروري في السياق للدلالة على المعنى ،كما أنّ لها دورا في تناسب الإيقاع دون أن يطغى هذا على ذاك أو يخضع النظم لأحد الأمرين. فالقرآن الكريم يستعمل الكلمات المترادفة التي تكون دلالتها دقيقة .

كما انفرد القرآن الكريم بميزة و هي أنّه ينتقي للمفردة موضعا معينا و يستدل بها غيره ، وقد يكون الموضوع واحدا إلا أنّ المفردة المنتقاة تؤدي مدلولها الخاص.من ذلك توظيف كلمة القرية والمدينة قال تعالى: "فَانطَلَقَا حَتّىَ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً" [31] وقاله تعالى: "وَأَمّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مّن رّبّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عّلَيْهِ صَبْراً"[32] ما يلاحظ من سياق الآيتين أنّ القرآن وظّف كلمة القرية عندما كان الحديث عن البخل,أمّا كلمة المدينة فقد ارتبطت بواقع الغلامين وكنزهما ،فعند المقارنة يظهر الفرق

بينهما ، فالقرية لها خصوصيتها من جهة السكان والعلاقات ،أمّا المدينة فهي مكتظّة ولا مكان للمساكين فيها.

فلكل صوت دلالته و لكل أصل لغوي دلالة تتمثل في معنى واحد في الأصل ، لكنّه يحمل أشكالا وصورا .ففي القرآن الكريم تتنوع الأصوات في إيقاعها و معانيها، فالألفاظ متباينة فيما بينها لكنّها تأخذ نغمتها من طبيعة الأصواتّ و تستمد دلالتها من نمط صياغتها . فاللغة العربية مكونة من كلمات لها معناه ، وقد تنبّه العلماء قديما إلى هذه المسألة "و يعد الخليل منبع الاتجاه الذي توخى دراسة القيمة التعبيرية للأصوات ، ومدى اتفاق دقة المعنى مع جرس الحرف المختار؛ فقد شغلته الألفاظ المعبرة عن أصوات المسموعات ، و رأى فيها أصواتا محاكية للطبيعة ، و حاول إثبات نوع الصلة الطبيعية بين أجراس الحروف ثمّ بين أنغام الألفاظ و معانيها الكلية من جهة أخرى."[33]

فالعلاقة بين اللفظ والمعنى عميقة ، فلا يقف أثر الصوت في الدلالة على الصوت المفرد بل هناك مراعاة للأصوات المجاورة في السياق ،فدقّة استعمال الصوت في خدمة الألفاظ يحقق الجمال الصوتي "وليس يخفى إنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصوت ، بما يخرجه فيه مدا أو غنّة أو لينا أو شدّة." [34]

فالقرآن يثوّر الكلمة لتعطي صورة محددة للمعنى لإثارة الفطرة"إنّ إيقاع اللفظ المفرد ، وتناعم الكلمة الواحدة ، عبارة عن جرس موسيقي للصوت فيما يجلبه من وقع في الأذن ، أو أثر عند المتلقي ، يساعد على تنبيه الأحاسيس في النفس الإنسانية ، لهذا كان ما أورده القرآن الكريم في هذا السياق متجاوبا مع معطيات الدلالة الصوتية." [35]

فالقرآن ينتقي من الأصوات ما يلائم المقام ليدلّ على المعنى ،فيؤثر بعض الصيغ ليكمل الدلالة بغية تأكيد القيمة التعبيرية للأصوات.فطبيعة القرآن الصوتية جمع كل مظاهر الدلالة وتنوع وجوه التعبير لتحقيق أبعاده" استعمل القرآن طائفة من الألفاظ ، ثمّ اختار أصواتها بما يناسب مع أصدائها ،و استوحى دلالتها من حسن صياغتها ،فكانت دالة على ذاتها ، فالفزع مثلا و الشدّة ، والهدّة ، والاشتباك ،و الخصام ، والضعف دلائل هادرة بالفزع والمناخ القاتل." [36]

و المتأمّل في القرآن الكريم يجد أصواته كلّها مؤتفلة ، ومتناسقة و المعاني المقصود بها فهو يستعمل الصوت داخل الكلمة لخدمة المعنى ،وكل لفظ له مكانه يناسبه مع الدقة المتناهية لإبراز المعنى"لا جرم أنّ المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضعه عن الآخر

إن أريد شرط الفصاحة؛ لأنّ لكل لفظ صوتا ربّما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تساق له الجملة،و ربّما اختلف و كان بغير ذلك أشبه." [37]

كما أعطى القرآن الاستعمال الدقيق للصوت في سبيل المعنى و الجمال الصوتي. و لقد تجّلت في الكتاب الكريم ظاهرة تكرير الصوت، و هذا لاقتران بعض الأوزان الصرفية بدلالات خاصة باللغة العربية ترجع في أصولها إلى الثلاثي غالبا ، وقد استحسنها القدامى كابن جني و قد نبه عليه الخليل و سيبويه من قبله.

ومن صور التكرير تكرير العين في الفعل الرباعي "ومن ذلك جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير الفعل فقالوا :كسّر،و قطّع،و فتّح ،وغلّق. وذلك لأنّهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل." [38] و هذه الصيغة تدل على التكثير "أغلقت الباب أو غلّقته على التكثير ، وذلك إذا أغلقت أبوابا كثيرة أو أغلقت بابا واحدا مرارا أو أحكمت إغلاق الباب ." [39]

إنّها ظاهرة لغوية تبين أثر الصوت في دلالة اللفظ ،و التلاؤم بين تكرير الصوت وتكرير الدلالة فيه. و استعمالها في القرآن الكريم يظهر قوة الصلة ،ويبقى القرآن مصدرا للبحث والدراسة ، وتظهر فيه الصلة بين أصوات الألفاظ و دلالتها قوية جدا، كما أنّ الأصوات تؤثر في دلالة الألفاظ وهذا حسب طبيعتها إن كانت مستعلية أو مجهورة أو مهموسة.

فالقرآن الكريم وظّف اللغة توظيفا فنيا، وتعامل مع دلالة الألفاظ فبلغ بها مبلغ الكمال الدلالي ثمّ أثراها من الجانب الصوتي ليحق أبعادا ذوقية.

إن لغة القرآن تتّسم بالانسجام و سهولة الألفاظ مما حقّق له صفاء صوتيا ، وتدفق التلاوة بالمقارنة بكلام العرب "الألفاظ دالة على الأصوات ،و قد توافرت في القرآن من الألفاظ الدقيقة عند إطلاقها،يكون اللفظ يدل على ذات الصوت،والصوت يتجلى فيه اللفظ نفسه." [40]

إنّ القرآن يراعي تحقيق دلالة الصوت، ويحرص على الملاءمة بينه وبين دلالته دحضا للرتابة والتكرار. فالألفاظ القرآنية تستمد قوتها من الأصوات التي تتألف منها، و من السياق الذي تكون فيه أهميته في صياغة المصطلحات القرآنية التي أعطاها الكتاب دلالة جديدة، فلا يقتصر دور الأصوات على الصوت المفرد و إنّما تؤخذ من الأصوات المجاورة.

<u>مراجع البحث وإحالاته:</u>

1-الجرجاني،دلائل الإعجاز،ط8 مكتنبة الخانجي القاهرة 2004م ، ص84

2- ابن منظور،لسان العرب،مادة سوق، دار صادر بيروت،. 1963م

3- الشافعي،الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، دار الكتب العلمية بيروت ،ص52
5. الشاطبي،الموافقات، دار الفكر العربي بيروت،413/3
5- نفس المرجع ،146/4
6- الطلحي ،دلالة السياق، رسالة دكتوراه جامعة أم القرى المملكة السعودية ، ص12
7- أبو حيان الغرناطي ،البحر المحيط، دار الفكر بيروت 1992م ، 127/1
8- الزرقاني،مناهل العرفان ،ط2 دار الكتب العربي بيروت 2003م ، 50/2
9- ابن تيمية ،مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف 1416هـ، 18/6
10- الجاحظ ،البيان و التبيين،ط1 شرح ،عبد السلام محمد هارون ،ط3 1960م، مكتبة الخانجي مصر76/1
الجرجاني ، دلائل الإعجاز،ص 262
12- نفس المرجع،.ص362
13- السيوطي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية بيروت ، 226/1
14-سيبويه ،الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ط2 عالم الكتب بيروت 1983م2،/24
15- هادي نهر،علم الدلالة، دار الأمل للنشر الأردن ، ص296. 297
16- تمام حسان، اللغة بين العربية بين المعيارية و الوصفية، عالم الكتب القاهرة،ص121
17- تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها، ص28. 29
18- كمال بشر ،دراسات في علم اللغة،ط91986م دار المعارف مصر، ص57
19- نفس المرجع،ص57
20- محمود السعران،علم اللغة، دار النهضة بيروت، ص310
21- دي سوسور،دروس في الألسنية العامة ،تعريف صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، ص188
22- مصطفى لطفي ، اللغة العربية في إطارها الاجتماعي ،ط51982م معهد الأنماء العربي بيروت، ص32
23-السيمانيتك:شبكة بيانات بالمعنى ،أي أنّه يمكن استرجاع البرامج الحسوبية الخاصة.
24- أحمد مختار عمر، علم الدلالة ،ط51998م عالم الكتب القاهرة ، ص73
25- أولمان ستيفن، دور الكلمة في اللغة ،ترجمة كمال بشر مكتبة الشباب القاهرة 1962م ، ص62
26-خالد قاسم بني دومي،دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن، عالم الكتب الجديد إربد الأردن ، ص17
27- حسام سعيد النعيمى،الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، دار الرشيد للنشر العراق، ص277
28- نفس المرجع،164/2
29- خالد قاسم بني دومي،دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن ،ص17
30- الرماني،الخطابي،الجرجاني.ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق:محمد زغلول سلام و محمد خلف الله. 36/1
31- الكهف 77
32-الكهف 82

33- انظر خالد قاسم بني دومي ،دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن ،ص18

34- انظر الرافعي،إعجاز القرآن و البلاغة النبوية،ط8 دار الكتاب العربي بيروت ، ص215-216

35- محمد الصغير،الدلالة الصوتية في القرآن[مقال]مجلة الإشعاع الإسلامي للدراسات و البحوث الإسلامية.إشراف صالح الكرباسي .

36- علي محمد الصغير،الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي بيروت ، ص165

37- الرافعي، إعجاز القرآن،ص226

38- نفس المرجع،155/2

39- الراغب الأصفهاني ،مفردات غريب القرآن، تح:محمد سيد الكيلاني،دار المعرفة بيروت،ص366

40- علي محمد الصغير،الصوت اللغوي في القرآن،ص203